مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 07 العدد 02 أكتوبر 2021 ص- ص:167.-184.

المقاربة التاريخية لعلاقة الإنسان بالبيئة.

Historical approach to the human relationship with the environment.

د. بلال بوترعة(*)	أ. أشواق بن عمار
جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي(الجزائر)	جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي(الجزائر)
bouterabelal@gmail.com	achwak76@gmail.com

تاريخ الاستلام: 23 /04/ 2021 تاريخ القبول:16 /05/ 2021 تاريخ النشر: 09 /10/ 2021

الملخص

تعتبر العلاقة بين الإنسان و الوسط الطبيعي من أهم محددات البيئة، إذ أن الوسط الطبيعي خلق لمد العون للإنسان. وأن العلاقة بين الطبيعة والإنسان في المراحل الأولى من تاريخه كانت علاقة انسجام وتناغم وارتباط وثيق منتعش بسعادة، فبعد أن كانت الطبيعة مصدر تأمل ومعرفة وانسجام واحترام ومحبة، واستفادة من خير وعطاء تغيرت النظرة إلى الطبيعة مع العلم الحديث خاصة مع ظهور الصناعة التي جعلت الإنسان يتدخل في الطبيعة باعتبارها موضوعا لنشاطه وسيطرته، حيث سعى إلى تغييرها وتطويعها تلبية لطموحاته.

الكلمات الدالة: الإنسان، البيئة، العلاقة بين الإنسان والبيئة

Abstract:

The relationship between the human being and the natural environment is one of the most important determinants of the environment, as the natural environment is created to extend aid to the human being. And that the relationship between nature and man in the early stages of his history was one of harmony, harmony and close bonding refreshed with happiness. After nature was a source of contemplation, knowledge, harmony, respect and love, and benefiting from good and giving, the outlook on nature changed with modern science, especially with the emergence of the industry that made man intervene in Nature as a subject of his activity and control, which he sought to change and adapt to meet his ambitions.

Keywords: Human, the environment, the relationship between man and the environment.

*المؤلف المرسل.

1. مقدمة

لقد دأب الإنسان منذ وجوده على وجهه هذه البسيطة إلى استغلال بيئته و الاستفادة مما تجود به عليه من موارد طبيعية، فنشأت بين هذا الإنسان والبيئة الطبيعية علاقة وطيدة تميزت بالحميمية حينا والعدائية أحيانا أخرى نتيجة شجع هذا الإنسان وأنانيته في التعامل مع البيئة، وممارسته التي فاقت قدرة النظام البيئي مما نتج عنها اختلال التوافق والانسجام في العلاقة بينه وبين بيئته.

إن هذه العلاقة بين الإنسان وبين البيئة الطبيعية كانت ولا زالت محل اهتمام ودراسة من قبل الباحثين والمفكرين والعلماء قديما وحديثا بدءا بإسهامات الفلاسفة والمفكرين والعلماء القدامى مثل: سقراط وأفلاطون وهيبقراط ومونستيكو وابن خلدون، وصولا إلى العصر الحديث وظهور نزعة كبيرة في الاهتمام بقضايا البيئة ومشكلاتها، هذا الاهتمام الذي تجسد فعليا بانعقاد العديد من المؤتمرات والندوات والملتقيات الدولية والوطنية حول قضية البيئة، التي باتت تهم الجميع وأي خلل أو ضرر يهدد توازنها يعتبر خطرا يهدد سلامة الجميع، فالمشكلات البيئية باتت لا تعترف بالحدود الجغرافية.

يسعى الإنسان دوما إلى استغلال موارد بيئته بطريقة أو بأخرى بغية إشباع حاجاته الأساسية والثانوية منها، هذا الاستغلال الذي يترجم في صورة العلاقة المتبادلة بينه وبين بيئته هذه العلاقة التي كانت في بداياتها الأولى أكثر انسجاما وتوافقا مع البيئة .

ولعل أبسط الطرق التي تفضح مدى الانسجام القائم بين الإنسان وبين بيئته هو تسليط الضوء على مدى الارتباط بينه وبينها، من حيث نوع الطعام الذي يتناوله، والمواد التي يستعملها في صناعة أدواته، مما توفرها له بيئة غنية كانت أم فقيرة، وهو ما يطلق عليه اليوم بالاقتصاد البيئي.

هذا الاقتصاد الذي كان في العصور القديمة بسيطا بدائيا، وبتقدم الإنسان وتطور أساليب حياته أصبح أكثر تعقيدا، حيث ازدادت المواد التي يستخدمها وتنوعت أنشطته، وأتجه هذا الاقتصاد من النمط البسيط إلى النمط الركب تبعا لتتطور التنظيمات الاجتماعية وما نتج عن

هذا التطور من آثار وانعكاسات على البيئة التي يعيش فيها هذا الإنسان.[1] ومن هنا نطرح التساؤل الدراسة التالي: ما هي أهم المراحل التاريخية لعلاقة الإنسان بالبيئة؟

2. مفهوم البيئة:

تعرف البيئة لغويا كما جاء في لسان أو معاجم اللغة العربية أن البيئة مشتقة من (بؤا) وهي المكان أو المحيط أو المنزل المستقر فيه، والذي يعيش فيه الكائن الحي، وقد جاء في لسان العرب: بؤاتك بيتا إي اتخذت بيتا، وقيل تبؤأه: إي تبؤا: إي نزل وأقام، وتبؤا فلان منزلا، إي جعله ذا منزل. وفي اللغة الفرنسية تعرف كلمة البيئة (ENVIRONMENT) بأنها مجموعة الظروف الطبيعية للمكان من هواء وماء وارض والكائنات الحية المحيطة بالإنسان، والتي تشمل الكائنات الحية وما يحتويه من مواد كالهواء والماء والتربية وما يقيمه الإنسان من مشنات.[2]

أما **اصطلاحا** فيشير مفهوم البيئة في العصر الحديث إلى الطبيعة بمكوناتها جميعا: الإنسان والكائنات الحية الأخرى الحيوانية والنباتية، إي كل ما يحيط بنا في الطبيعة وما نراه من حولنا وما يقع في المجال الحيوي للأرض من هواء وماء وتراب وكائنات حية.[3]

والبيئة هي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان يتأثر به ويؤثر فيه بشكل ما يتضمنه هذا الوسط من عناصر من خلق الله أو عناصر من صنع الإنسان. وقد حدد المؤتمر الدولي للبيئة الذي عقد في ستوكهولم السويد في عام 1972 البيئة بأنها هي مجموعة النظم الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الحية الأخرى ويستمدون منها زادهم ويؤدون فيها نشاطهم، والبيئة عبارة عن وحدة واحدة تتألف من شقين:

- **البيئة الطبيعية:** هي كل ما يحيط الإنسان من عناصر حية أو غير حية وليس للإنسان دخل في وجودها من هواء وماء وصخور وعناصر مناخ وتربة وحيوانات ونباتات.
- **البيئة المشيدة:** هي كل ما أضافه الإنسان من عناصر أو معطيات بيئية نتيجة لتفاعله مع بيئته ورغبته في استغلال مواردها، ونميز بين نوعين من البيئة المشيدة:

أ- بيئة حضارية متقدمة: يملك فيها الإنسان قدرات علمية وتكنولوجية كبيرة تمكنه من استغلال مواردها حسب رغباته.

ب- بيئة نامية أو متخلفة: يكون فيها الإنسان صاحب قدرات علمية محدودة لا تمكنه من استغلال الموارد البيئة.[4]

3. مفهوم النظام البيئي:

النظام البيئي هو التفاعل المنظم والمستمر بين عناصر البيئة الحية وغير الحية، وما يولده هذا التفاعل من توازن بين عناصر البيئة. و يقوم النظام البيئي على التفاعل منظم بين عناصر هذا النظام بكل مكوناته، وهذا يحتم الحفاظ على هذا التنظيم عند تفاعل هذه العناصر، وإلا كانت النتيجة وجود خلل في هذا النظام مما يؤثر سلبا على عناصر البيئة بمكوناتها وعلى رأسها هذا الإنسان.

أن استمرار التوازن بين عناصر النظام البيئي سبب في الحفاظ عليه من الخراب، من هنا تظهر أهمية الحفاظ على كل مكون من مكونات النظام البيئي ،ففناء مكون من مكونات النظام البيئي يترتب عليه خلل في النظام البيئي ويؤثر سلبا على عناصر أخرى كثيرة. إي التفاعل الايجابي بين عناصر البيئة يحقق التوازن البيئي.

واقترح لفظ النظام البيئي، العالم البريطاني، في عام 1935 م، لوصف العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها غير الحية،وهو عبارة عن مجموعة الكائنات الحية المتواجدة في منطقة ما،والمتفاعلة مع بعضها البعض، وهذا التفاعل يؤدي إلى انتقال طاقة وتبادل المواد بين المكونات الحية وغير الحية في هذا النظام.[5]

3. مراحل التي مرت بها العلاقة بين الإنسان وبيئته عبر التاريخ

يمكننا أن نميز ثلاث مراحل مرت بها العلاقة بين الإنسان وبيئته عبر التاريخ وهي:

1.3. المرحلة الأولى: مرحلة القنص وجمع الغذاء وأوائل الزراعة

وتشمل هذه المرحلة إنسان عصر ما قبل التاريخ وامتدت هذه المرحلة منذ بداية الخليقة إلى غاية العصر الحجري الحديث، وما يميز هذه المرحلة هو سيطرة البيئة على الإنسان البسيط

سيطرة تامة، وتعتبر حرفة الجمع والالتقاط من أقدم الحرف التي عرفها الإنسان والتي ظهرت في هذه المرحلة هذه الحرفة البسيطة والتي لا تحتاج إلى وسائل وأجهزة متطورة، فإنسان هذه المرحلة كان همه الوحيد هو الحصول على الطعام فقط وهو أمر لم يكن يحتاج إلى قدرات أو مهارات عالية، فالإنسان لم يكن مؤثرا في البيئة كما هو الحال اليوم.[6]

استقر هذا النمط لأول مرة سنة (8500 ق.م) في جنوب غرب آسيا، وبقيت إلى اليوم أعداد آخذة في التناقص تمارس الجمع والقنص، وبدأت منذ سنة(5000ق.م) آثار الفتاحين والزراع الأوائل على البيئة[7]،غير أنه لم يكن تأثيرا كبيرا ولم يمس بسلامة البيئة، على اعتبار أن أعداد السكان في تلك الفترة لم تكن كبيرة وحاجات هذه الأعداد السكانية لم تتجاوز قدرة الأنظمة البيئية وموارد البيئة، إضافة إلى أن وسائل وطرق التعامل الإنسان مع بيئته كانت بدائية وبسيطة ولم تشكل أي خطر على البيئة ولا على نظامها وتوازنها.

إن انتقال الإنسان إلى مرحلة الصيد كمرحلة تطور بالنسبة له، جعلته يتميز عن غيره من الأحياء الأخرى، حيث بدأ يستخدم قدراته الفكرية والعقلية وبدأ يتعرف تدريجيا على مختلف الكائنات الحية التي تشاركه الوجود، وبدأ يتعرف أكثر على الحيوانات بصفة خاصة، وتحركاتها اليومية والموسمية وأوقات تكاثرها، ولعل أهم أحدث في هذه المرحلة هو اكتشاف النار، هذه الأخيرة التي استخدمت في الأضواء وصهر المعادن وتطوير وسائل الصيد[8]، وبدأت في هذه المرحلة بوادر تراجع درجة التوافق بين الإنسان وبيئته، وبدأت ممارسات الإنسان تزداد سوءا وأنانية على حساب البيئة وسلامتها.

وقد أشارت بعض الدراسات أن هناك بعض أنواع العواشب الثدية قد انقرضت في أواخر عصر البلايستوسن(plesstacene) وأوائل عصر الهولوسين(holocene)، نتيجة بعض الممارسات البشرية في بعض مناطق أمريكا الشمالية، وإن كان هناك تضارب في الآراء حول أسباب الانقراض هل مرده إلى بعض التغيرات المناخية، وهذا الأخير غير مستبعد الحدوث إلا أن بعض العلماء يؤكدون أن هناك أسباب بشرية لها دخل في هذا الحدث، ودليل ذلك وقوع أحداث مماثلة في أماكن مختلفة مثل نيوزيلندة ومدغشقر وجاوة على غرار ما حدث في أستراليا

عندما استخدم السكان الأصليون الغابة لأغراض القنص وتهيئة الأرض للزراعة، وسجلت في القرن 19 نسب كبيرة في حدائق الإحراج والغابات حيث قدرت بـ(5000) حريق في العام.

لقد شهدت هذه المرحلة تراجع كبير في مهنة الجمع والقنص، وأصبحت الزراعة بديلا ناجعا ،خصوصا انتشار ما يعرف بالزراعة الكاملة وهي الزراعة التي تعتمد على الحيوانات والنباتات وأصبح الاشتغال بالصيد والجمع في حالة تعذر ممارسة الزراعة وتربية الماشية، مثل أوربا أين وجد القناصون الذين لا يمارسون الزراعة وتربية الماشية.[9]

2.3. المرحلة الثانية: مرحلة الاستقرار ونشأة المجتمعات الزراعية

بدأت علاقة الإنسان ببيئته في هذه المرحلة تتسع، وتغير نمط حياته بفضل ما أتيح له من معارف وأفكار فبعد أن كان رحالا أصبح يبحث عن الاستقرار، وبدأ يعتمد في تأمين غذاءه وتوفير متطلبات معيشته على الزراعة وتربية الحيوانات، الأمر الذي أدى إلى ظهور بعض التأثيرات السلبية على البيئة[10]، لأن الإنسان في هذه المرحلة كان حريصا على تطويع البيئة وتسخيرها لرغباته بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة مستخدما في ذلك مياه الأنهار والأودية واستغلال جلود الحيوانات لصناعة ملابسه و أفرشته وبناء المساكن وغيرها من الممارسات والأنشطة التي انعكست سلبا على البيئة.

يرجع تاريخ مرحلة نشأة المجتمعات الزراعية أو كما يحلو للبعض تسميتها بمرحلة الإمبراطوريات القائمة على الزراعة إلى حوالي سنة(500ق.م) و(1700ق م) حيث شكلت القرى في هذه المرحلة وحدة المجتمع الرئيسية، وانتشرت في هذه المرحلة الزراعة بشكل كبير خاصة البعلية منها والتي كانت لها عواقب وخيمة على البيئة تمثلت في توسيع رقعة الأرض المزروعة على حساب نظم إيكولوجية أخرى كالغابات[11].

إن هذا التحول في العلاقة بين الإنسان وبيئته الذي نتج عن إقبال الإنسان على الزراعة واستغلال مساحات كبيرة من الأراضي والمناطق الخصبة كان له بعض الانعكاسات والآثار السلبية على النظام البيئي الذي تسبب به لم يصل إلى درجة عالية من الخطورة التي قد تفوق قدرة الأنظمة البيئية على استيعابه.

3.3. المرحلة الثالثة: مرحلة ظهور المجتمعات الصناعية

بدأت هذه المرحلة منذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى وقتنا الحاضر، ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى مرحلتين:

– **مرحلة الأولى**: بدأت بقيام الثورة الصناعية منذ منتصف القرن الثامن عشر.

– **مرحلة الثانية**: هي التي بدأت بعد عام 1950 وهي التي يطلق عليها الثورة الصناعية الثانية أو ثورة الحاسبات الآلية.

لقد عرفت حياة الإنسان في هذه المرحلة تغيرا في الأسلوب والوسيلة والمنهج والغاية، وأستطاع في هذه المرحلة أن يستغل موارد بيئته بشكل أكبر بفضل ما أتيح له من قوة مادية وفكرية.

أصبح بمقدور الإنسان في هذه المرحلة أن يعيش في بيئة من صنعه أي بيئة مشيدة واخترع الآلات الحديثة واكتشف موارد جديدة من الطاقة، واستطاع بفضل هذه المخترعات والصناعات تذليل البيئة لصالحه، وبلغ تأثيره فيها أقصاه في هذه المرحلة حيث شكل حزام من المدن من شيكاغو إلى بيروت، فضلا عن المدن التي أنشأها على شواطئ آسيا حتى طوكيو مركزا لنمط حياة اقتصادية يقوم في معظمه على الطاقة المستمدة من أنواع الوقود الأحفوري،[12] والتي جعلت الإنسان يقاوم الظروف الطبيعية، ويسعى إلى اختراع كل من شأنه أن يسير حياته ويحقق رفاهيته ويلبي كل متطلباته المتزايدة.

إذن فهذه المرحلة هي مرحلة التصنيع والآلة والتطور، وفي المقابل مرحلة بطش الإنسان وأنانيته تجاه بيئته، فالتطورات التي شهدتها هذه المرحلة منذ منتصف القرن 18 إلى اليوم، تمحورت معظمها حول اكتشاف أنواع مختلفة من الوقود الهيدروكربوني، ونقله واستخدامه كالفحم الحجري والنفط والغاز الطبيعي، والفحم النباتي هذا الأخير الذي عرف استخداما كبيرا خصوصا في البلدان النامية ، وهو ما كان له آثار بيئية سلبية، إضافة إلى الزيادة السكانية التي قابلها زيادة في نسب الاستهلاك الفردي ترتب عليها ارتفاع متسارع في استخدام الطاقة ونقلها وتحويلها، بحيث أصبح يشغل استخراج النفط في العالم 100كلم2 تقريبا من مساحة سطح

الأرض، أما الوقود الأحفوري بجميع أنواعه فهو يشغل حوالي 180 كلم2 من مساحة سطح الأرض، وهذا أحد الأمثلة عن التحولات البيئية التي نتجت عن معالجة الطاقة، عدا عن استخدامها في تشغيل الآلات وما ترتب عن ذلك من أكوام ضخمة من النفايات، وانبعاثات غازية بنسب كبيرة لوثت الهواء[13].

إن هذه المرحلة الجديدة في علاقة الإنسان ببيئته، باتت تنبؤ بالخطر وتهدد وجود الإنسان ذاته في هذا الوجود نتيجة هذه المشكلات البيئية المتزايدة التي ظهرت بالتزامن مع التطور الحاصل في ميدان الصناعة والتكنولوجيا، وقد أشار مؤتمر تبليسي إلى هذا الوضع حيث جاء فيه(لقد أحدث الإنسان في العقود القليلة الماضية تغيرات ملحوظة في ميزان الطبيعة، وذلك بفضل قدرته على تغيير بيئته،و كانت النتيجة هي تعريض مختلف الكائنات الحية وفي مقدمتها الإنسان نفسه للمخاطر)[14].

لقد أدخلت الثورة الصناعية وما نتج عنها من دمار في مختلف نواحي البيئة، علاقة الإنسان ببيئته في نفق مظلم وفي عصر جديد تمثلت أبرز ملامحه في مشكلات تلوث متزايدة واستنزاف موارد البيئة وظهور أمراض جديدة نتيجة هذا الاختلال البيئي.

4. مبادئ العلاقة الأزلية بين الإنسان وبيئته

لقد مرت علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية بمراحل عديدة، كما تناولنا في السطور السابقة، كان سعي الإنسان الدائم هو البحث عن أفضل ظروف العيش والبقاء في هذه البيئة، فأستخدم فكره ووجهه إلى تسخير البيئة وعناصرها لصالحه وتذليلها من أجل تحقيق أهدافه وطموحاته، فكانت علاقته بهذه البيئة تزداد سوءا يوما بعد يوم نتيجة جشع هذا الإنسان وأنانيته في التعامل مع البيئة وعلى العموم فإن فهم ومعرفة هذه العلاقة الأزلية بين الإنسان وبيئته يجب أن يراعي مبادئ عدة نوجزها في ما يلي:

- **المبدأ الأول**: تعقد وتشابك العلاقة بين الإنسان وبيئته خصوصا أن هذه العلاقة تشهد تغيرات دائمة نتيجة ما يتاح لهذا الإنسان من أسباب التقدم الاجتماعي والثقافي والتكنولوجي والصناعي.

- **المبدأ الثاني:** إن ما يحدثه الإنسان في بيئته من تغيرات ومشكلات في الحقيقة ظواهر إيكولوجية لا يتسنى لنا فهمها فهما صحيحا، إلا في ضوء العلاقة الثلاثية القوية التي تقوم بين الإنسان والمجتمع والبيئة.
- **المبدأ الثالث:** الإنسان هو جزء من البيئة يعيش فيها يؤثر ويتأثر بها، وتأثير الإنسان على بيئته الطبيعية إنما يتم عن طريق المجتمع ومن خلاله.
- **المبدأ الرابع:** صحيح أن للبيئة تأثير على الحياة في كل المستويات الثقافية والاجتماعية، غير أن هذا التأثير لا يكون مطلقا، فالبيئة تقدم فقط إمكانيات وعناصر وموارد يستخدمها الإنسان في حياته ومن أجل بقاءه وهو الفاعل الأساسي في قبول أو رفض ذلك بعيدا عن حتمية تأثير البيئة عليه.
- **المبدأ الخامس:** التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعي، وبالتالي على التغيرات التي تحدث للأفراد والجماعات والجهود التي يبذلها الإنسان بغية التكيف مع بيئته، سواء اتخذت العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة أو شكل التحكم في الظروف البيئية والسيطرة عليها وتذليلها لصالحه.[15]

5. النظريات الثلاثة في تفسير علاقة الإنسان بالبيئة

1.5. نظرية الحتميّة البيئيّة

الفكرة الأساسية لهذه المدرسة ترتكز على أن البيئة هي المسيطرة على الإنسان بتسييره لا تخييره، ودوره فيها دور سلبي بالخضوع والتقيد، وأن لها إسهاما كبيرا في تشكل ونشأة الثقافة والقيم والنظم الاجتماعية وحتى الطباع والأخلاق، وأن الاختلافات القائمة بين المجتمعات البشرية مردها إلى الاختلافات المتباينة في الظروف البيئية.

وبدأ التفكير الحتمي في البروز خلال القرن التاسع عشر واستمر حتى أوائل القرن العشرين، إلا أن موضوع تأثير البيئة الطبيعية على الإنسان من الموضوعات القديمة التي عالجها الفلاسفة والكتاب كما عالجها المؤرخون والجغرافيون منذ القدم، والحتمية أو البيئية تعتبر الإنسان كائن

سلبي خاضع للظروف البيئية المحيطة به، وحياته الجسدية والاجتماعية والحرفية انعكاس لتكيفه مع البيئة فهو منها وإليها.[16]

ويَقِرّ أصحاب هذه النظريّة أنّ الإنسان يخضع بكل ما فيه للبيئة فهي التي تسيطر عليه وليس العكس كما يتردّد ويُشيَّع، فالبيئة بما فيها من مناخ مُعيّن وغطاء نباتي وحياة حيوانية تؤثر على الإنسان من مختلف الجوانب ومثال على ذلك: تأثير البيئة على عظام الإنسان، فإذا كان الإنسان يعيش في بيئة جبليّة يكون تأثيرها بالإيجاب على تقوية عضلات الأرجل .. أما إذا كانت بحرية فهي تقوّي عضلات اليديَنْ. وقد أدى هذا التأثير المتباين والتناقض الواضح بين الشعوب وخاصة بين الآسيويّين والأوروبيين والذي استرعى انتباه الفلاسفة منذ القدم إلي ظهور نظرية الحتميّة لتفسير هذا التناقض.

ابن خلدون (1400 م): وقد اختصّ ابن خلدون في تفسير علاقة الإنسان ببيئته عن أثر المناخ في طبائع الشعوب وتأثير الهواء علي ألوان البشر، وضرب مثلاً علي ذلك بشعوب السودان والذي وصفهم بالخفّة والطّيش وكثرة الطرب والسبب في ذلك الحرارة التي تجعلهم أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطا، كما تحدث ابن خلدون عن الأقاليم الجغرافية وتأثيرها في حياة الإنسان حيث يرى أنّ هناك سبعة أقاليم، وتتميز الأقاليم من الثالث والرابع والخامس بالاعتدال الذي يميّز طبائع سكانّها أيضاً وألوانهم .. أمّا الأقاليم غير المعتدلة تلك التي تقع في الأول والثاني والسادس والسابع فسكانها متوحّشون.

أرسطو (284 – 322 – ق.م): تناول في كتابه عن السياسة الفرق بين سكان المناطق الباردة في أوروبا وسكان آسيا، فسكان أوروبا بالنسبة له يتميّزون بالشجاعة التي كانت أساس حريّتهم لكنّهم غير ماهرين في الإدارة والفهم والتنظيم وبالتالي يفتقدون إمكانيّة السيطرة أو الإمساك بزمام الأمور.. أما سكان آسيا فلديهم الفكر والمهارة الفنية لكنهم يفتقرون إلي الجرأة ممّا جعلهم محكومين بغيرهم .. أما الإغريق في ذلك الوقت كانوا يعيشون في منطقة وسط بين الآسيويين والأوروبيين مما جعلهم يجمعون بين مميّزات المجموعَتَيْن.

هيبوقراط (420 ق.م): وكانت الإيماءة في كتابه "الجو والماء والأقاليم"، إن سكان الجبال المعرّضين للأمطار والرياح يتّصفون بالشجاعة وطول القامة والطباع الحميدة أما سكان الأقاليم المكشوفة الجافة يتصفون بنحافة القامة وحبّ التحكّم.

مونتسيكييه: تحدث مونتسكييه في كتاب "روح القانون" عن اثر المناخ والتربة في حياة الإنسان.[17].

2.5. المدرسة الاختيارية أو الإمكانية

التغيير والتطوير والتأقلم، من خلال الاختيارات التي تقدمها له البيئة الطبيعية، والتي يختار منها ما يتناسب ويتلاءم مع قدراته وطموحاته وأهدافه، فهو بذلك يحاول السيطرة على الطبيعة، بتطويعها وتعديلها وتغييرها وفقا لمشيئته وتؤمن هذه المدرسة بحرية الإنسان في الاختيار، فالبيئة لا تحتوي على ضروريات أو حتميات وفقط، وإنما تقدم للإنسان عددا من الاختيارات. وهو بذلك يعتبر قوة إيجابية فعالة على تهيئة مطالبه وتعديلها واختيارها أنسبها وتوافقها مع طبيعته وميولاته، وعلى هذا الأساس فليست هناك حتمية مطلقة وصارمة بل هناك إمكانية واختيار ومرونة.[18]

المتأمل في أساس وركيزة هذه المدرسة في تفسير العلاقة القائمة بين الإنسان والبيئة، يجدها منحت الفرصة للإنسان باعتباره كائنا مفكرا وعدم إقصائه في التعامل والتعاطي مع الطبيعة كما ذهبت إليه المدرسة الحتمية، واعتبرت الإنسان بقدرته وتفكيره عنصرا إيجابيا مع البيئة لا سلبيا، يستطيع بما منحه الخالق من عقل وتدبر مسايرة الطبيعة ومعايشتها وعدم الخضوع لها كلية، وإنما محاولة تطويعها ولو جزئيا.

وازدهرت أفكار هذه المدرسة في بداية القرن العشرين، وارتبطت أفكارها بقدرة الإنسان في التأثير على البيئة الطبيعية، ومع وجود تقدم ملحوظ في التصنيع وإنتاج الأدوات والآلات واستغلال هذه المنتجات في تمكين الإنسان من العيش في كافة الظروف البيئية، كالعيش في المناطق الباردة جدا مثل آلاسكا، أو العيش في المناطق الحارة جدا، مثل الربع الخالي في الجزيرة العربية، بالإضافة إلى أن الإنسان هو الذي يحدد نمط استغلاله لموارد الطبيعة، ومظاهر العمران

المختلفة، والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي أدى إلى التأثير في البيئة بشكل فعال، يدعم فكر هذه المدرسة التي تؤكد دور الإنسان في رسم علاقة مميزة بالبيئة الطبيعية.[19]

ويرجع الفضل للمدرسة الجغرافية الفرنسية في ظهور مبدأ الإمكانية، ويعتبر **فيدال دي لا بلاش** من أشهر مؤسسيها، ويرى من خلال أفكاره ومساهماته في هذه المدرسة أن للإنسان دور كبير في تعديل بيئته وتهيئتها وفقاً لمتطلباته واحتياجاته، ويصف البيئة بأنها إنسانية وليست طبيعية، ينبغي دراستها على أساس تاريخي من خلال تحليل جهود الإنسان في علاقاته مع البيئة عبر التاريخ، ويرى التنوع في عناصرها حيث يختار ما يتلاءم منها حسب مهاراته الآلية واليدوية، فالعامل الحاسم هنا هو قدرات الإنسان وإمكانياته التي ظهرت في إقامة الجسور والسدود وشق الأنفاق الجبلية وغيرها، وخير مثال على هذه القدرات الإنسانية الحضارة المصرية القديمة من خلال إقامة الجسور ومشروعات الري وبناء السد العالي وغيرها من الحضارات الإنسانية الأخرى في بلاد السودان والحبشة.

كذلك **لوسيان فيفر وإسحق بومان** من رواد هذه المدرسة، حيث يرى العالمان أن مظاهر البيئة هي من فعل الإنسان مثل حقول الشعير ومزارع الأرز والقطن وقصب السكر وغيرها، وأن الإنسان هو الذي نظم الحقول وأقام القناطر والسدود وشق الترع والمصارف، واخترع أساليب وأدوات زراعية جديدة لزيادة رقعة الأرض التي يزرعها، ولا يقتصر الأمر على الزراعة وإنما يمتد للصناعة التي ترتبط إلى حد كبير بتوفير المادة الخام في بيئتها والتي بدورها تتطلب توفير المهارات وسبل المواصلات والمال والأسواق والتي واقعيا تعتمد على مقومات بشرية أكثر من مقومات بيئية حيث أن المهارة والتكنولوجيا تتصل بالتواجد البشرى، وعن مواقع المدن واختيار مواقعها كانت من الأدلة التي استند إليها أصحاب هذه النظرية لتأييد نظرية الاختيارية وتحكم الإنسان في البيئة وليس لمجرد تواجدها الطبيعي فالمدن الدينية والحربية سواء من أجل عوامل ثقافية كالتدين أو عوامل أمنية كالحماية، كما أن التوزيع السكاني لأي مدينة في العالم يرجع إلى عوامل اجتماعية وثقافية وبشرية إلى جانب العوامل الطبيعية، ويصل هذا التأثير إلى الحيوان

فنجد عدم وجود بعض الحيوانات في بعض البلدان وتوفرها بكثرة في بلدان أخرى مثل البقرة في الهند التي يحرم ذبحها لتقديسها.[20]

ومن أتباع المدرسة الاحتمالية في بريطانيا فلير وفي الولايات المتحدة الأمريكية كارل ساور، وقد أثرت المدرسة الأمريكية في ظهور عدد من المصطلحات التي شاع استخدامها في المؤلفات الجغرافيا مثل المظهر الطبيعي ويشمل كل العناصر الطبيعية، والمظهر البشري الذي يشمل أعمال الإنسان وآثاره، وعلى الرغم من اعتراف الإمكانيين بسيادة الإنسان وسيطرته على الممتلكات، إلا أنه لا يملك الحرية الكاملة في تغيير بيئته، حيث أنها ما زالت تضع أمامه حدودا لم يستطع تجاوزها، فقلة الأمطار وندرة المياه لا تيسر قيام حياة الاستقرار، ولكنها تدفع بالجامعات البشرية إلى حياة الظن الارتجال، كما أن الإنسان البدائي يتأثر ببيئته الطبيعية أكثر من تأثر الإنسان المتحضر الذي لديه القدرة على الابتكار والتقليد، وتطبيق ما تعلم في حياته العملية.[21]

ونستنتج أن رواد هذه المدرسة كانوا أكثر حذرا من الحتميين في معالجة العلاقة القائمة بين البيئة والإنسان، وأكدوا على الوحدة الجغرافيا والاختلاف البشري، ويؤخذ على توجهات هذه المدرسة أن الإنسان لم يسيطر سيطرة كاملة على الطبيعة، بل هناك ظواهر طبيعية تفوق قدرته العقلية ولازالت تؤرقه إلى يومنا هذا رغم ما توصل إليه من تطور علمي وتكنولوجي، ورغم ذلك فإن هذه المدرسة تعتبر أكثر منطقية من الحتمية في إعطائها فرصة للإنسان وما يتميز به من عقل لمسايرة الطبيعة والتأقلم معها.

3.5. المدرسة الاحتمالية أو التوافقية:

وتقوم هذه النظرية بدور الوساطة بين كل من أنصار الحتمية والاختيارية)الإمكانية(للصراع الذي دار بينهما وكان لابد من ظهور نظرية ثالثة جديدة تحاول التوفيق بين الآراء المختلفة لذا يطلق عليها اسم "النظرية التوافقية" أو "الاحتمالية"، وهي لا تؤمن بالحتمية المطلقة أو الإمكانية المطلقة وإنما تؤمن بدور الإنسان والبيئة وتأثير كل منهما على الآخر بشكل متغير فتغلب على بعض البيئات تعاظم تأثير الطبيعة وسلبية تأثير الإنسان عليها ويكون العكس في

بعض البيئات الأخرى، واعتمد أصحاب هذه النظرية في تفسيرها على تصنيف نوعية البيئة من ناحية، ونوعية الإنسان من ناحية أخرى، حي يتفاعلان الاثنين سوياً ليشكلا جوهر العلاقة بين الإنسان والبيئة، وحددت تنوع طرفي العلاقة على النحو التالي:

- الطرف الأول: البيئة
- بيئة صعبة X ـ بيئة سهلةX

فالبيئة الصعبة تحتاج إلى مجهود كبير من جانب الإنسان للتكيف معها، بينما الطرف الآخر المتمثل في البيئة السهلة فهي تستجيب لأقل مجهود. ويقع بين طرفي هاتين البيئتين بيئات أخرى متفاوتة من حي درجة الصعوبة فكلما اتجهنا ناحية اليمين يتعاظم دور البيئة وكلما اتجهنا شمالاً يقل.

- الطرف الثاني: الإنسان
- إنسان ايجابي X ـ إنسان سلبيX

فالإنسان الإيجابي هو الذي يتفاعل مع البيئة بشكل كبير لتحقيق طموحاته وإشباع احتياجاته، أما الإنسان السلبي فهو إنسان محدود القدرات والمهارات ودوره محدود بالمقارنة بالإنسان الايجابي ويقع بين هذين الطرفين مجموعات بشرية مختلفة في المهارات والقدرات وفي التأثير على البيئة.

ومن ثم فإن هذه النظرية أكثر واقعية لأنها توضح أشكال عديدة للعلاقة بين الإنسان وبيئته دون أن تميز إحدى أطراف هذه العلاقة دون غيره، وتتمثل هذه العلاقة في التنوع الذي يتضح بالشكل التالي:

- بيئة صعبة + إنسان سلبي = حتمية بيئية
- بيئة سهلة + إنسان سلبي = إمكانية
- بيئة صعبة + إنسان إيجابي = توافقية
- بيئة سهلة + إنسان سلبي = توافقية

وقد اقترب فكر المؤرخ الإنجليزي **أرنولد توينبي** من هذه النظرية والتي تحدد علاقة الإنسان والبيئة في أربع استجابات مختلفة:

– **استجابة سلبية:** تخلف الإنسان علمياً وحضارياً مما يجعله غير قادر على الاستفادة من بيئته أو أن يؤثر بشكل فعال عليها.

– **استجابة التأقلم:** تكون البيئة هي المسيطرة عليه في هذه الاستجابة مع توافر بعض المهارات للإنسان التي تمكنه من التأقلم نسبياً مع ظروفها الطبيعية.

– **استجابة إيجابية:** نجاح الإنسان في تطويع البيئة بما يتناسب مع رغباته واحتياجاته، ويستطيع من خلال مهاراته الإيجابية هذه أن يتغلب على أية معوقات وإن كانت بيئة صعبة.

– **استجابة إبداعية:** وهي أرقى أنواع الاستجابات على الإطلاق، فلا يقف الأمر على كون الإنسان إيجابياً وإنما مبدعاً يعرف كيف يستفيد من بيئته ليس بالتغلب على الصعوبة وحلها، وإنما بابتكار أشياء تفيده في مجالات أخرى عديدة.

وتعتبر هذه المدرسة وانطلاقا من تسميتها قد وفقت إلى حد كبير في تفسير العلاقة القائمة بين البيئة والإنسان، فهي لم تغلب الطبيعة على الإنسان وتقصيه إقصاء تاما، ولم ترجح كفة الإنسان على الطبيعة، بل حاولت التوفيق بين الرأيين، وتفسير العلاقة بين البيئة والإنسان بصورة متوازنة، وهي تقترب من الواقعية في تصورها لثنائية البيئة والإنسان وتشكيل المجتمعات، وانطلاقا من هذه الفكرة فإن تفاعل الإنسان مع الطبيعة ليس بالضرورة خاضع لحتمية مطلقة، أو إمكانية مطلقة، بل يتحدد وفقا لمدى صعوبة البيئة من جهة وقدرة الإنسان على التكيف والتعايش معها من جهة أخرى، بمعنى تبادل الأدوار بين البيئة والإنسان.[22]

وينبغي النظر إلى الإنسان كعامل مؤثر، يختلف مدى تأثيره وتأثره باختلاف الظروف البيئية، بمعنى أن الإنسان في بيئته الاجتماعية البدائية البسيطة، تكون البيئة الطبيعية هي المسيطرة عليه ويخضع في كل أعماله للظروف المحيطة به، وحينما يتقدم بالتدريج في بيئته الاجتماعية، تضعف الصلات التي تربطه بالبيئة الطبيعية، ويقل أثر عواملها فيه، وهذا التحلل من قيود البيئة لا يجري بصورة واحدة في بيئات العالم المختلفة بسبب اختلاف خصائص كل بيئة، ذلك أن تقدم

الإنسان في مدارج الحضارة مرتبط بمدى سخاء البيئة وغناها أو فقرها، وهذا صحيح إلى حد بعيد، ولكن لابد لنا أن نضيف أنه بجانب توفر الموارد المادية الضرورية يجب أن يرافق ذلك توفر العنصر المعنوي المتمثل في الاستقرار والأمن الاجتماعي الذي يمكن الحياة من السير والتقدم المستقر من دون أي تهديد.[23]

6. المشكلات البيئية في العالم

عموما يمكن القول أن هناك مسائل ثلاث اتسمت بها هذه المرحلة و علاقة الإنسان ببيئته، فيما يتعلق بالمشكلات البيئية في العالم وهي:

- النمو السكاني المتزايد والذي فاق في بعض المناطق قدرة الأرض والبيئة على تلبية متطلبات هذا العدد المتزايد، الأمر الذي أنعكس سلبا على البيئة وعلى مواردها الطبيعية والحيوانية والنباتية وتسبب في ظهور ممارسات بشرية أخلت بتوازن البيئة وفتكت بنظامها نتيجة سعي الإنسان الدائم وبشتى الطرق لتوفير متطلباته ورغباته حتى ولو كان ذلك على حساب توازن النظام البيئي.
- الثورة علمية والتكنولوجية والتي تعتبر أبرز ملامح هذا العصر الحديث والمتسارع في الكم والكيف واختراع الأجهزة واستخدامها مما تسبب في ظهور هذه النزعة الصناعية التكنولوجية التطورية التي كانت لها نتائج وخيمة على البيئة وتسببت في ظهور العديد من المشكلات البيئية خاصة في الدول الصناعية الكبرى، وما نسب التلوث بكافة أنواعه في هذه البلدان إلا دليل على هذا.
- اختلال التوازن البيئي نتيجة تدخل الإنسان بممارساته الشاردة في التوازن الطبيعي لأنظمة البيئة وما نجم عنه من مشكلات بيئية تعدت حدود المحلية والإقليمية إلى العالمية، وظهر ما يعرف في العقود الأخيرة بمشكلة الاحتباس الحراري نتيجة تغير المناخ.[24]

7. الخاتمة

الإنسان والبيئة منذ القدم هي عبارة عن مراحل متطورة من قبل تاريخ الأرض من القدم يستخدم الإنسان البيئة والجغرافيا من أجل مصلحته الشخصية فقام الإنسان بصنع الكثير من

التغيرات في البيئة المحيطة به بشكل كبير وجعل الكثير من جغرافية الأرض مختلفة عن ما كانت عليها من قبل.

وقام الإنسان بتدخل في البيئة بشكل كبير حتى أنه بسبب تدخله حدث ما لم يحدث من قبل وهو الاحتباس الحراري العالمي والذي نتج بسبب تدخل الإنسان في عمل البيئة وضربها بكثير من الأشكال المختلفة، مازال يحتاج الإنسان في احتياجاته للبيئة ومازال يتدخل الإنسان في عمل البيئة هي سبب كبير في تطور الجنس البشري، وضرورية لبقائه على قيد الحياة، لأنها من مكونات البقاء، لأن الهواء والماء والتربة من ناحية، تعتبر الأشجار والغابات من العناصر الأساسية للإنسان.

من ناحية أخرى، لضمان التوازن البيئي، لا يمكن أن يكون المرء بصحة جيدة أو مستقيماً بدون الحياة، فالعلاقة بين الإنسان والبيئة ضرورية للحياة ومكونات ضرورية، ولقد مرت العلاقة بين الإنسان والبيئة بمراحل متعددة ومراحل مختلفة، وقد رسمت كل مرحلة شكلاً معينًا للعلاقة بين الإنسان والبيئة ينعكس في وعيه وثقافته وخبراته الحياتية المتراكمة.

8. قائمة المراجع

[1]– رجاء وحيد دويدري، البيئة مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي، دار الفكر، بيروت، ط1، 2004 ، ص 127.

[2]–كرم علي حافظ، الإعلام وقضايا البيئة، الجنادرية للنشر والتوزيع، ط1، 2017، ص9

[3]– ديار حسن كريم، الجغرافيا البيئية، الجنادرية للنشر والتوزيع، ط1، 2015، ص07.

[4]– عبد الله الدبوبي وآخرون، الإنسان والبيئة دراسة اجتماعية تربوية، دار المامؤن للنشر والتوزيع، ط3 ، 2012، ص ص10 -14.

[4]– وليد رفيق العياصرة، التربية البيئية و استراتيجيات تدريسها، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ص 28.

[6]– أحمد،حسين اللقاني و حسن أحمد ، التربية البيئية بين الحاضر والمستقبل، عالم الكتب، مصر، ط 1، 1999، ص 15.

[7]– رجاء وحيد دويدري. مرجع سابق، ص 128.

[8]– عيسى علي إبراهيم، جغرافية التنمية البيئية، دار النهضة العربية، بيروت، 2004، ص 190

[9]– رجاء وحيد دويدري، مرجع سابق، ص ص129-131.

[10]– سامح الغرايبية و يحي الفرحان، المدخل إلى العلوم البيئية، دار الشروق، مصر، 2002، ص 25

[11]– رجاء وحيد دويدري، مرجع سابق، ص ص137- 138.

[12]– رجاء وحيد دويدري، المرجع نفسه، ص 139.

[13]– رجاء، وحيد دويدري. المرجع نفسه، ص 140.

[14]– عصام توفيق قمر و سحر فتحي مبروك، الأنشطة المدرسية والوعي البيئي، الأطر النظرية، الأدوار الوظيفية، التجارب الدولية. دار السحاب للنشر والتوزيع، 2004، ص 25.

[15]– نظيمة أحمد محمود سرحان، منهاج الخدمة الاجتماعية لحماية البيئة من التلوث، دار الفكر العربي، القاهرة، 2005، ص47.

[16]– عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية– صراع الإنسان مع البيئية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1996، ص25.

[17]– محمود الاحمدية، النظريات الثلاثة في علاقة الإنسان بالبيئة، 2015 نقلا على الرابط https://archive.anbaaonline.com/?p=325360

[18]– حسين عبد الحميد رشوان، البيئة والمجتمع، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2006، ص91.

[19]– عبد الله الدبوبي وآخرون، الإنسان والبيئة دراسة اجتماعية تربوية، ط3، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، 2012، ص23.

[20]– احمد موسى محمود خليل، مقدمة في الجغرافيا البشرية المعاصرة، المكتب العربي للمعارف، مصر، 2014، ص16.

[21]– حسام الدين جاد الرب، الجغرافيا البشرية، مكتبة الإسكندرية، مصر، ص18.

[22]– احمد موسى محمود خليل، مرجع سابق، ص ص17-18.

[23]– جودة حسين جودة، أسس الجغرافيا العامة/ منشاة المعارف، مصر، 2004، ص358.

[24]– نظيمة أحمد محمود سرحان، مرجع سابق، ص46.